نكولين ليغوم
الوحدة الافريقية والشيوعية

اول ما يقال عن الوحدة الافريقية انها اقدم بكثير من الشيوعية في شكلها الحديث : فهي لها مطامحها ، ورغباتها ، واهدافها . والنقطة الثانية هي ان مجابهتها للشيوعية ليست بالامر الجديد : فهي مستمرة منذ اربعين عاما . اما الجديد فهو المجابهة بين الشيوعية والوحدةالافريقية داخل افريقيا نفسها : وهذه هي المرحلة الجديدة التي بدأت منذ حوالي خمس سنوات .

ليست الوحدة الافريقية ، ولم تكن قط ، حركة سياسية موحدة او مركبة . انها حركة افكار وعواطف : وتاريخها السياسي الحديث انما هو البحث عن تنظيم سياسي يستطيع البقاء . في طيّها اتجاهات عديدة شديدة التباين : في اقصاها من جهة المحافظون السياسيون والقوميون ، وفي الاقصى الآخر الراديكاليون والثوريون . والصراع الاساسي يدور حول طبيعة التوحيد السياسي . والاكثرية تحبّذ منظمة الوحدة الافريقية ، ولكن هناك اقلية ، اشهر افرادها الدكتور نكروما ، تريد الوحدة السياسية المباشرة — ما هو اشبه بالولايات المتحدة الافريقية .

ان النظريين الشيوعيين منقسمون في آرائهم حول ما اذا كان التطوير السريع نحو التوحيد التام عمليا . فهناك من يعارض هذه الفكرة معارضة مطلقة ، وهناك ، مؤخرا ، من يساندها مساندة مطلقة . اما الحذر فصادر عن الروس ، واما التشجيع المتحمس فصادر عن الشيوعيين البريطانيين .

وتكتيك الشيوعيين هو الا يوقعوا انفسهم في صراع سافر مع اية دولة افريقية مستقلة. فهم يحاولون ان يقيموا علاقات طيبة مع الدول الافريقية كلها ، وإن نجدهم ، بالطبع ، يتقربون من البعض اكثر من البعض الآخر . وهنا يشاهد المرء فرقا بين الروس والصينيين: فالصينيون اقل من الروس اهتماما بمخاصمة الحكومات الرجعية ، كما نرى ، مثلا ، في مناصرتهم جماعة الدكتور مومي الـ UPC في جمهورية الكمرون . اما الموقف الروسي فينسجم وقرارات حزبه الشيوعي عام ١٩٦١ بشأن مناصرة «الدولة الديمقراطية الوطنية». فموقفهم التكتيكي العام هو تشجيع دعم الكوادر التقدمية ضمن «الدولة الديمقراطية الوطنية» — مؤملين ان تكون هذه الكوادر قريبة لمصادر السلطة وبالتالي قادرة على تنفيذ

« السياسات التقدمية » او ، اذا ما سنحت الفرصة المؤاتية ، على تسلم زمام الحكم . وهكذا فان الشيوعيين لا يدعمون بالضرورة خلق الاحزاب الشيوعية — الا في الاقطار التي لم تستقل بعد. بيد ان هناك شواذ : فهم يساعدون في ادامة الاحزاب الشيوعية المنفية التي تنتمي الى اقطار كالسودان والجزائر والجمهورية العربية المتحدة وتونس . الا ان هدفهم الاكبر هو اقامة فئات قوية من الشيوعيين الماركسيين في كل بلد للعمل سرا او جهرا : وعلى هذه الفئات ، دون الحكومات القائمة ، يعتمد الشيوعيون في المزيد من التغلغل . ولذلك فعلينا الا ننخدع بمناصرتهم السافرة بوجه خاص لغانا ومالي والجزائر في الآونة الراهنة .

ولكن ، على الرغم من محاولات الشيوعيين في البقاء على علاقات طيبة مع الدول الافريقية كلها ، فانهم يجدون انفسهم احيانا واقعين في التناقضات الضمينة في وضع كهذا. وابرز مثل حديث على ذلك ، الصومال . هنا يجب ان نرى دور الصين كقوة تدفع الروس الى مواقف يترددون في اتخاذها .

خلفية الوحدة الافريقية

يمكن تقسيم تاريخ حركة الوحدة الافريقية الى اربع مراحل :

اولا ، مرحلة النشوء ، من حوالي القرن السابع عشر الى اوائل القرن العشرين .

ثانيا ، المرحلة السياسية الاولية ، التي تبدأ باول مؤتمر للوحدة الافريقية في لندن عام ١٩٠٠ ، ويبرز فيها الموقفان المتضادان اللذان اتخذهما عملاقا التفكير الوحدوي الافريقي — مرقس غارفي و و . ا . ب . دوبوا.

ثالثا ، الفترة التي قد نسميها بفترة الدمج ، التي تبدأ بانشقاق جورج بادمور عن الكومنترن في اواسط الثلاثينات ، وباستهلال نشاطه في لندن . بلغت هذه الفترة ذروتها في « مؤتمر الوحدة الافريقية » بمانشستر عام ١٩٤٥ . وفيه نجد اول محاولة لحل الصراعات الاساسية في التفكير الوحدوي الافريقي ، وايجاد علاقة متماسكة اعظم بين العواطف والافكار ، وخلق اطار سياسي مسفسط للوحدة الافريقية . وحوالي هذا الوقت نفسه نجد النسخة الناطقة بالفرنسية عن هذه الحركة في نمو فكرة « الزنجية » (negritude) التي بدأتها جماعة « الحضور الافريقي » واوحى بها شعراء كالدكتور سنغور ، وبخاصة ايميه سيزير .

رابعا واخيرا ، الفترة الرابعة ، وهي ايضا الفترة القارية الافريقية الاولى . وقد بدأت بتجذير افكار الوحدة الافريقية في افريقيا نفسها ، عندما انعقد « مؤتمر الدول الافريقية المستقلة » الاول بدعوة من الدكتور نكروما في اكرا عام ١٩٥٨ ، وبلغت ذروتها في مؤتمر القمة الاول لرؤساء الدول الافريقية في اديس ابابا ، في ايار (مايو) ١٩٦٣ .

اما من حيث الشيوعيون ، فقد بذلوا جهدا كبيرا في الفترة الثانية من فترات الوحدة الافريقية لكسب امـا غـارفي او دوبوا الى جانبهم ، لا سيما الاول . ولما وقعت الوحدة الافريقية ، تحت تأثير جورج بادمور في فترتها الثالثة ، انقلب الشيوعيون عليها وعاملوها كقوة معادية (« حركة بورجوازية رجعية ») ، ولم يغيروا آراءهم تدريجيا الا بعد المؤتمر الاول لمنظمـة الشعوب الافريقية في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٨ ؛ ولكنهم اوضحوا ذلك اكثر بعد المؤتمر الثاني لهذه المنظمة في تونس ١٩٦٠ .

لقد كان هنـاك تبـاين كبير بين موقف كل من غارفي ودوبوا وبادمور من الشيوعيين . فغارفي ، متخذا وضع النقيض ، رفض الشيوعية باعتبارها « اكبر رجس فرض على الانسانية ابدا » . وكان انتقاده العالم الابيض انه حرم افريقيا المجال لاخراج « روكفلر و روتشيلد وهنري فورد من بين شعبها الاسود » . ورأى ان الرأسمالية « ضرورية لتقدم العالم » . وكان خصمه الزنجي الاكبر ، دوبوا ، معارضا للرأسمالية طيلة حياته ، متأرجحا تأرجح القلق بين الاشتراكية الديمقراطية والشيوعية . اما جورج بادمور فقد بدأ اشتراكيا ، ثم اصبح شيوعيا دوليـا ، وبعد ذلك قضى الجزء الاخير من حياته كعدو لدود للشيوعيين ونصير شجاع لما سماه « بالاشتراكية الانسانية الديمقراطية » . ومن الطريف ان نذكر هنا ان رئيس غانا ، كوامي نكروما ، قد تأثر بثلاثتهم : ففي سني تكوينه الفكري كان معجبا جدا بغارفي ، دون دوبوا . ثم اصبح بادمور مستشاره السياسي في لندن ، وبعد استقلال غانا اضحى يده اليمنى كمستشار في الشؤون الافريقية . اما دوبوا ، فـلم يكن مقربا منه ، ولكنه اعجب به ، ولا سيما لفكرته بتهيئة « موسوعة افريقية » — وهي فكرة يتبناها نكروما الآن .

الكومنترن والزنوج

كان السبب في اهتمام الشيوعيين بالقادة الاوائل لحركة الوحدة الافريقية هو ان غارفي افلح في انشاء اول حركة جماهيرية بين زنوج امريـكا ، وكان ذلك امرا تمنـاه الشيوعيون ولكنهم اخفقوا في تحقيقه . وفي عام ١٩٢٠ ، في مؤتمر الكومنترن الثاني ، قام نقاش حاد بين لينين و م . و . روي الهندي حول نوع السياسة التي يجب ان يتبناها الشيوعيون لاجتذاب الشعوب الملونة في العالم . وكان قرارهم الوسط ان « . . . على الكومنترن ان يتعاون مبدئيا مع الحركات الثورية في المستعمرات والبلدان المتخلفة (كذا) ، بل وان يؤلف تحالفا معها ؛ ولكن عليه الا يندمج فيها » . ولئن تغيرت مع السنين لغة الشيوعية وتكتيكها ، فقد بقي هـذا نهجها الموجه . وبعد ذلك بثلاث سنوات ، اي عام ١٩٢٣ ، فصّلت هذه الفكرة بوضوح اشد في كتاب « رسالات مؤتمر الكومنترن الرابع بشأن قضية الاستعمار » الذي نص على ان « واجب الشيوعيين الخاص هو تطبيق هذه الرسالة . . . على

« افريقيا واحدة » بريشة علي درويش

المشكلة الزنجية ايضا » .

وكان من بين النقاط الاربع التي اختيرت للتطبيق الخاص النقطتان التاليتان :

« اولا، ضرورة دعم اي شكل من اشكال حركة الزنوج يقوّض الرأسمالية او يضعفها، او يعيق توغلها . ثانيا ، الكفاح من اجل التساوي بين العرقين الابيض والاسود للحصول على اجور متساوية وحقوق اجتماعية وسياسية متساوية » .

في هذه « الرسالة » وجدنا لاول مرة الفكرة القائلة بان «تاريخ الزنوج في امريكا يؤهلهم للقيام بدور هام في نضال التحرير للعرق الافريقي بأجمعه » . (هنا يلاحظ المرء كم كان هذا التحليل مخطئا : فثورة ١٩٦٣ الزنجية انما عقبت حركة الاستقلال الناجحة في افريقيا، وتكيفت بها) . ولكن ، في اوائل العشرينات كان هناك سببان لتأكيد الكومنترن .

اولا ، لم يحرز الشيوعيون اي تقدم في افريقيا نفسها ، باستثناء بداية مهزوزة في جنوبي افريقيا . وثانيا ، اذ نشأت طبقة عاملة زنجية ، كما نشأ « وعي افريقي » بين زعماء الزنوج في امريكا وجزر الهند الغربية ، فقد دل ذلك على طريق محتمل الى قلوب الافريقيين واذهانهم . وقد كان ايضا في مؤتمر الكومنترن الرابع هذا ان صمم الشيوعيون على الشروع في ضرب من الوحدة الافريقية خاص بهم : فقرروا ان « يتخذوا الخطوات لعقد مؤتمر عالمي للزنوج » . ولكن هذا المشروع بالذات لم ينته الى شيء .

ولما استمر الشيوعيون في محاولاتهم ، عام ١٩٢٨ ، لاختراق العالم الاسود ، فقد نص المؤتمر الموسع للمجلس التنفيذي المركزي للحزب الشيوعي على ان « قضية الزنوج قضية عرقية ، ويجب على الحزب الشيوعي ان يناصر العرق الزنجي المضطهد» . وقد كان في عام ١٩٢٨ ان شرع الكومنترن بسياسة مناصرة الجمهوريات السوداء في الولايات المتحدة وجنوبي افريقيا ، مما ادى الى تحطيم الحزب الشيوعي في كلا هذين البلدين . (اما اليوم ، فالذين يطالبون بولايات سوداء منفصلة في الولايات المتحدة ، هم « المسلمون السود » الذين يصرون على عرقيتهم) . ولكن رأس الرمح للشعوب السوداء عام ١٩٢٨ كان لا يزال الزنجي في الولايات المتحدة .

دوبوا و غارفي و بادمور

تكررت المحاولات بعد ١٩٢٠ لجعل مرقس غارفي حليفا للشيوعيين . فراحوا يهاجمونه تارة ويمدحونه تارة اخرى ؛ وبذلوا جهودا لاختراق الـ UNIA ، غير انه رفض دعواتهم كلها .

اما برغارت دوبوا فقد كانت علاقته بالشيوعيين على تناقض اشد من علاقة غارفي بهم . كان من دأبه ان يتحدث عن نفسه كاشتراكي ، ويشجب « عقيدة » الصراع الطبقي كما تطبق على الزنوج ، لان « العمال البيض يرفضون ان يعتبروا الزنوج رفاقا لهم في البروليتاريا » . وقال ان الزنوج يتمتعون « بتعاطف شامل بين الطبقات » . وانذر بانه ، ما لم يوافق العمال البيض على الاندماج مع السود ، قد يقع الزنوج « تحت تأثير المنظمات الشيوعية » . ورغم ان دوبوا تشجع كثيرا بما رأى في روسيا عام ١٩٢٦ ، فان موقفه من الشيوعيين ظل على تناقضه . وفي قضية سكوتسبورو (١٩٣١) انذر الزنوج بان « ثمة بشأن الشيوعيين خطرا حادا ... فاصوات الزنوج سيقدمونها عن قصد ضحية لاغراض في انفسهم » . وهذا ادى الى شجبه من قبل مؤتمر الحزب الشيوعي الامريكي الثامن كأحد « الدعائم الاجتماعية الكبرى للرجعية الاستعمارية » . واخيرا جاء شجب كل من دوبوا وغارفي في مؤتمر الكومنترن السادس عام ١٩٢٨ . فدعي دوبوا « خائن الشعب الزنجي » ، ورفضت « الغارفية » ، ووصمت الوحدة الافريقية ، حسب ما يقول بادمور ، بانها حركة

« قومية بورجوازية صغيرة » رجعية .

وكان بعد ذلك بسنين كثيرة ان عزم الدكتور دوبوا على الانضمام الى الحزب الشيوعي: وتلك خطوة خطاها عام ١٩٦١ ، قبل موته في اكرا بسنتين في سن الخامسة والتسعين . وكان عندئذ قد بطلت قيمته كقوة يعتدّ بها في حركة الوحدة الافريقية لاكثر من جيل كامل . ولئن يُجلّ « كأبي الوحدة الافريقية » ، فقد وقعت عباءته قبل ذلك بربع قرن على كتفي جورج بادمور ، مهندس الوحدة الافريقيه الحديثة — وهو من جزر الهند الغربية .

لقد سعى جورج بادمور للعمل على التحرير من الاستعمار لسبع سنوات عن طريق الكومنترن . وكان لوقت ما الزعيم الزنجي المؤتمن في جهاز الكومنترن ، وخدم كرئيس للجنة النقابات الزنجية المنبثقة عن البروفنترن (Profintern) ، او « اتحاد نقابات العمال الدولية الحمراء » (RILU) . وخلافا لغيره من الشيوعيين الذين خابت آمالهم ، لم يتخل بادمور قط عن مبادئه كاشتراكي وكنصير لحقوق الانسان وتحرير الشعوب المستعمرة . وكان بادمور مسؤولا اكثر من اي زعيم آخر عن تدريب جيل من الزعماء الافريقيين في المستعمرات الافريقية لتجنب التورطات الدولية ؛ والتمييز بين الاشتراكية الديمقراطية ، والماركسية ، والشيوعية ؛ والدفع بالوحدة الافريقية الى اتخاذ الاساليب اللاعنفية في الكفاح. وله يعود الفضل في نجاح مؤتمر الوحدة الافريقية المنعقد عام ١٩٤٥ في مانشستر، حيث كان اهم ملازميه الدكتور نكروما ، والسيد جومو كنياتا ، والدكتور ماكونن ، وبعض الهنود الغربيين امثال المرحوم الدكتور بيتر ميليارد و ك . ل . ر . جيمز .

وبادمور اكبر ثقةٍ ، بلا منازع ، في شؤون العلاقات بين حركات الوحدة الافريقية والشيوعيين فيما بين الحربين . وكانت قراراته واضحة جدا :

« ان الروس كالطبقة البريطانية الحاكمة لا يعرفون اصدقاء دائمين ولا اعداء دائمين ، بل مصالح دائمة وحسب — اي ، بقاء الاتحاد السوفييتي » .

وهو يذكر امثلة عديدة على كلبية (cynicism) الشيوعيين وانتهازيتهم . ويحتقر اللعب على الالفاظ لدى الشيوعيين الغربيين . وهو يقول معلقا على مناصرة الشيوعيين للنضال من اجل تحرير الشعوب المستعمرة :

« بما انه ليس للشيوعيين ما يضيعونه ولهم الكثير مما قد يكسبونه في الصيد في الماء العكر في آسيا وافريقيا ، فانهم لا يجدون بأسا في مناصرة الكفاح لتحرير الشعوب المستعمرة بالكلام ، دون تحفظ » .

ويمكن تلخيص تفكير بادمور السياسي في العنوان الذي يسم اهم كتبه : « الوحدة الافريقية ام الشيوعية ؟ الكفاح القادم من اجل افريقيا » . وموضوعه كما يلي : « ان القوة

الوحيدة الكفيلة بوقف توسع الشيوعية في آسيا وافريقيا هي القومية الدينامية المبنية على برنامج اشتراكي للتصنيع واساليب تعاونية في الانتاج الزراعي ... وفي نضالنا من اجل التحرر القومي ، والكرامة الانسانية ، والفداء الاجتماعي ، تهيء لنا حركة الوحدة الافريقية بديلا ايديولوجيا للشيوعية من جهة وللقبلية من جهة اخرى. وهي ترفض العرقية البيضاء كما ترفض الشوفينية السوداء . انها تنشد التعايش العرقي على اساس المساواة المطلقة واحترام الشخصية الانسانية ... اما الماركسية العقائدية، وبخاصة كما يدعو لها الشيوعيون البريطانيون ، الذين لم يقدموا شيئا اصيلا واحدا لتطبيق اللينينية عمليا ، فليس فيها ما يجتذب القوميين في المستعمرات . فليس ثمة افريقي يحترم نفسه يريد تبديل سادته البريطانيين بسادة روس . ولا يعير الافريقيون اذنا للدعاية الشيوعية الا عند شعورهم بانهم قد خذلوا وخيبوا ... قوة الشيوعيين هي في معرفتهم بان الديمقراطية الغربية تقع فريسة لحيرتها عندما تجابه بتنفيذ ما تؤمن هي به تجاه الشعوب السمراء » .

ويقول جورج بادمور عن طبيعة الوحدة الافريقية واطماحها في اللحظة التي تسلم شؤونها الدكتور نكروما ، والدكتور ب . ن . ازيكيوي ، وغيرهما من قادة الوحدة الافريقية عند نهاية الحرب العالمية الثانية :

«ان يكن هناك امر دللت عليه الاحداث في افريقيا ، وكذلك في آسيا، في السنوات التالية للحرب ، فهو ان الشعوب المستعمرة تغضب لموقف الاوربيين ، شيوعيين كانوا ام معادين للشيوعية ، بانهم وحدهم يملكون المعرفة والخبرة الضروريتين لتوجيه تقدم الشعوب غير المستقلة . ان الافريقيين يشعرون انهم قادرون على قيادة انفسهم ، وتنمية فلسفة وايديولوجية ملائمتين لظروفهم وحاجاتهم الخاصة ، وقد جعلوا يعتبرون تعجرف البيض « المتعالين » بهذا الصدد تدخلا لا مبرر له وافتراضا للتفوق لا يغتفر . ان الافريقيين يقبلون النصح والمناصرة المقدمين لهم بروح من المساواة الحقة ، ويؤثرون الابقاء على صلات الصداقة مع الغرب . الا انهم يريدون ان يشقوا طريقهم بجهدهم هم . ولكن اذا عرقل سيرهم فقد يلجأون من خيبتهم الى الشيوعية كالسبيل الآخر الوحيد الى تحقيق اهدافهم . ولذا فان شكل افريقيا المستقبل ، بهذا الصدد ، ستقرره الى حد بعيد مواقف الامم الغربية .

« وفضلا عن ذلك ، فان الوحدة الافريقية تستمد الكثير من وحيها من كفاحات حركات التحرر الوطني في البلدان الاسيوية ، وتؤمن بمبدأ اللاعنف الذي وضعه غاندي كوسيلة للحصول على تقرير المصير والمساواة العرقية. انها ترفض نظام الرأسمالية الاحتكاري الذي لا كابح له في الغرب، بقدر ما ترفض المطلقية السياسية والثقافية التي يمارسها الشرق. انها تجد نفسها متفقة مع المعسكر الحيادي، وتقاوم كل انواع الاضطهاد والشوفينية العرقية

— بيضاء كانت ام سوداء — وتضم نفسها الى جميع قوى التقدم وحسن النية ، بغض النظر عن الجنسية او العرق او اللون او العقيدة، وتعمل من اجل الاخوّة العالمية، والعدالة الاجتماعية ، والسلام للشعوب كلها في كل مكان ...

« ان الوحدة الافريقية ترى الكثير مما هو حقيقي في التأويل الماركسي للتاريخ ، لانه يهيء تفسيرا عقلانيا للكثير مما ، لولاه ، لبقي غير مفهوم . غير انها مع ذلك ترفض ما تدّعيه الشيوعية العقائدية من ادعاءات ضخمة ، من انها وحدها تملك الحل لكل ما يجابه افريقيا من مشاكل معقدة، عرقية وقبلية واقتصادية اجتماعية. كما انها ترفض عدم التسامح الشيوعي مع كل من لا يخضع لسياسة الحزب المتقلبة ابدا ، الى حد تصفيتهم « كاعداء الشعب». فالديمقراطية والاخوّة لا يمكن ان تبنيا على العنف وعدم التسامح ...

« اما بشأن الشيوعية ، فالافارقة لا يرون داعيا للخوف من الغول الاحمر طالما بقي قادتهم السياسيون مخلصين لمبادىء ومثاليات الوحدة الافريقية. لان الوحدة الافريقية ، سياسيا ، انما تنشد تحقيق الحكم للافارقة بالافارقة من اجل الافارقة ، مع الاحترام للاقليات العرقية والدينية التي تودّ العيش في افريقيا على اساس المساواة مع الاغلبية السوداء. والوحدة الافريقية ، اقتصاديا وسياسيا ، تؤمن باهداف « الاشتراكية الديمقراطية » الاساسية ، وسيطرة الدولة على الوسائل الرئيسية للانتاج والتوزيع . انها تدافع عن حرية المواطن ضمن القانون وتوافق على « الاعلان الاساسي عن حقوق الانسان » ، مع التوكيد على الحريات الاربع » .

الصراع حول « الزنجية »

لقد اتخذ ظهور ونمو افكار الوحدة الافريقية شكلا يغاير هذا الشكل تماما بين المثقفين في افريقيا الناطقة بالفرنسية . فقد حاولت فكرتهم الكبرى ، « الزنجية » ، عن طريق شعرائها بوجه رئيسي ، ان تحقق دمجا في علاقة الحب — الكره القائمة بين المثقفين السود واوربا . وقد كانت «الزنجية» دائما حركة نخبة ، وكان منشؤوها الكبار (فيما عدا رئيس السنغال ، سنغور) من جزر الهند الغربية الفرنسية ، وكانت تسودها افكار ماركسية وشيوعية . وقد احرز الشيوعيون نصرين كبيرين ، وان لم يدوما طويلا ، في المضمار الافريقي الناطق بالفرنسية : فقد نجحوا بعد الحرب العالمية الثانية في تشكيل حلف مع « التجمع الديمقراطي الافريقي » (RDA)، وهي الحركة التي تتخطى الحدود الوطنية في افريقيا الفرنسية الغربية والاستوائية ؛ كما انهم اصابوا نجاحا كبيرا في السيطرة على المركز الرئيسي لنقابات العمال في افريقيا الناطقة بالفرنسية . وقد غدا زعيم الـ RDA ، رئيس ساحل العاج هوفويه بوانيي ، فيما بعد عدو الشيوعيين الاكبر في افريقيا الفرنسية ؛

ينيا اخذ زعيم غينيا، المسيو سيكو توري ، زمام المبادرة في تحطيم سطوة الـ WFTU على النقابات الافريقية باصراره على خلق حركة نقابية للافريقيين تتخطى الحدود الوطنية ، ومستقلة عن السيطرة الاوربية.

والحركة الزنجية ، في محاولتها حل اشكالاتها الديالكتيكية ، اوجدت «الماركسيين الافريقيين » . وينعكس وضعهم في قرار اتخذته جماعتهم في المؤتمر الثاني للادباء والفنانين الزنوج عام ١٩٥٩ :

« اولا ، الاشارات الثقافية في تفكير ماركس تكاد تكون كلها مستقاة من تجربة الغرب .

« ثانيا ، الحالة الاقتصادية لدى البروليتاريا الغربية لا يمكن اعتبارها انها هي نفسها التي لدى الشعوب المتأخرة النمو .

« ثالثا ، تكون العقيدة عالمية بقدر ما تأخذ بعين الاعتبار تجربة الشعوب التاريخية والاقتصادية ، الخ ، وتنوع عبقرياتها الثقافية ، من ناحية ، وبقدر ما تسيطر على تطبيقها سلطة تمثيلية حقة ، من ناحية اخرى .

« اننا ندعو الماركسيين الافريقيين الى انماء عقيدتهم على قاعدة من تاريخ شعوبهم الحقيقي ومطامحها واوضاعها الاقتصادية ، والى بنائها وتأسيسها على مقومات ثقافتهم » .

غير ان الانقسام الحقيقي بين حزب فرنسا الشيوعي والحركة الشيوعية الدولية وبين « الزنجية » وقع عام ١٩٥٦ عندما كتب ايميه سيزير ، احد الشيوعيين الزنوج البارزين في فرنسا وزعيم « الزنجية » بل منازع ، « كتابا مفتوحا » شهيرا الى موريس توريز . وهو يستهل كتابه الى السكرتير العام للحزب الشيوعي الفرنسي بهذه الكلمات :

« من السهل عليّ ان اعبر عن مشاعري تجاه كلا الحزب الشيوعي الفرنسي والدولية الشيوعية (الكومنترن) في شكلها الذي اضفته عليها رعاية الاتحاد السوفييتي : غير ان حالة الخلافات والشكاوي ستطول . وقد كان لدينا منها مؤخرا غلة كسرت الرقم القياسي ؛ وان ما كشفه خروتشيف بشأن ستالين لهو من الخطورة بحيث انه يقذف بكل واحد منا، مهما كان مدى مساهمته في النشاط الشيوعي، في هاوية من الفزع، والالم، والعار».

لقد كان انشقاق سيزير عن الشيوعيين صدمة قوية لهم بقدر ما كان انشقاق بادمور قبل ذلك بست وعشرين سنة ؛ وكانت التهم هي نفسها ، فيما عدا ان سيزير ادخل خروتشيف في جملة انتقاداته « للكلبية » الستالينية . وكانت استقالة سيزير خاتمة سلسلة من الاستقالات انتهى اليها تقريبا مع الخيبة كل زنجي بارز عمل نشيطا داخل الكومنترن: كلستون هيوز و رتشرد رايت ، و بادمور و جيمز ، و بيتر ابراهام الجنوبي افريقي . وهذه الحالات كلها تقريبا كانت نقطة دخول المثقف الاسود في الشيوعية هي واحدة:

الايمان بان العالم الشيوعي يهيء للمرء الكرامة والفرص للتعاون اللاعرقي في الكفاح من اجل تحرير الملونين من الاستعمار . وكلهم استقالوا وقد اصيبوا بالصدمة نفسها ، كما قال سيزير :

« لا الماركسية ولا الشيوعية هي ما ارفض : انما انا اشجب الكيفية التي استغل بها اناس معينون الماركسية والشيوعية . ما ابغيه هو الاستعانة بالماركسية والشيوعية في خدمة الشعوب الملونة ، لا الاستعانة بالشعوب الملونة في خدمة الماركسية والشيوعية ؛ وان تفصّل العقيدة والحركة لكي تلائم الناس ، لا ان يفصّل الناس لكي يلائموا الحركة . وهذا بالطبع ينطبق على آخرين من غير الشيوعيين » .

وقال سيزير ، متوقعا الانشقاق داخل الكومنترن بين موسكو وبكين :

« ان هناك شيوعية صينية . وعلى الرغم من انني لست مطلعا عليها اطلاعا مباشرا ، فانني متعصب لها . فانا اتوقع منها الا تقع في الاخطاء الوحشية التي شوهت الشيوعية الاوربية . ولكن يهمني ايضا ، اكثر من ذلك ، ان ارى الشيوعية بنوعها الافريقي تزدهر وتثمر . فمن المحتمل جدا بانها ستقدم لنا صورا متباينة — صورا متباينة اصيلة ، ثمينة ، مفيدة ؛ والحكمة فينا ، التي هي تراثنا التليد ، ستظلّل ، ولا شك ، او تكمل الكثير من نقاط العقيدة » .

الشيوعيون وافريقيا المستقلة

ليس من العسير فهم المشكلات التي جابهت الشيوعيين عام ١٩٥٨ . فقد دأبوا لحوالي اربعين سنة على محاولة الربط بين الحركات الزنجية والوحدويين الافريقيين وبين الدولية الشيوعية (الكومنترن) . بيد ان نجاحاتهم كانت قليلة وقصيرة العمر . وكان تحليلهم لحركة التحرر من الاستعمار يضللهم عن الطريق . فهم اذ استرشدوا « بالنظرية الستالينية القائلة بان ثورة الشعوب المستعمرة تنجم عن الفرض بان حل مشكلة الاستعمار وتحرير الشعوب المضطهَدة من عبودية الاستعمار امر مستحيل بغير ثورة بروليتارية والاطاحة بالاستعمار » ، فقد كانوا غير مستعدين بالمرة للانفكاك الفجائي الذي اقدمت عليه دول الاستعمار في افريقيا . ومع انهم كانوا دوما يعترفون بأهمية « القوميين البورجوازيين » في كفاح التحرر ، فان نظرياتهم لم تقل بان هذه القوى قادرة على انماء مقاومة كافية لنيل الاستقلال بالقوة بدون فئات من « الطليعة البروليتارية » تلهمهم وتحثهم . وكانت الدولية الشيوعية قد تنبأت بصراع مرير اذ يقوم الاستعماريون بمعارك اخيرة ، تبرز التنظيمات الثورية في اثنائها لانتزاع القيادة .

ولكنهم لم يبدأوا الا عام ١٩٥٥ بالشك جديا في صحة تشخيصهم للثورات بين

المستعمَرة . فهي لم تحدث كما توقعوا قط . فقد ادى مؤتمر باندونغ ، والتحدي الذي قامت به حركة الضباط في مصر بقيادة محمد نجيب و عبد الناصر ، ونجاح السريع نسبيا في ساحل العاج ، الى اعادة النظر في نظرياتهم. ولكن الوقت كان فقد جابههم وضع جديد لم يكن يخطر لهم ببال — سلسلة كاملة من الحكومات ية البورجوازية » كان اول ما فعلته كلها تقريبا حظر الشيوعيين . بل كانت هذه ومات الجديدة ، في الواقع، اشد بأسا واكثر قدرة في هذا المضمار بالذات من الدول ستعمارية .

وقد استعرض احد النظريين الشيوعيين افريقيا الجديدة ، فقال نادبا : « معاداة الشيوعية ، وكره الشيوعيين ، ومنع الماركسية اللينينية كنظام فكري ، ومحاولة سحق المنظمات الشيوعية — هذه كلها ليست تضييقا للديمقراطية وحسب في افريقيا . انها تحديد للتطور الوطني ، واضعاف للقضية الوطنية وأحقّ مصالح جماهير الشعب ، وعون للاستعماريين ... وانه لمن المؤسف ان بعض القادة الافارقة قد التقط هذه العباءة المهلهلة التي هي عباءة الدكتاتوريين والمستعمرين» .

وهذا الرأي الكئيب نفسه نجده منعكسا في كلام ب . بونوماريف ، سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي:

« لقد كان الشيوعيون دائما في طليعة المناضلين من اجل الاستقلال الوطني . وقد مات منهم الآلاف ابطالا في الكفاح ضد الاستعمار . ورغم ذلك فان الاحزاب الشيوعية، حتى في هذه اللحظة ، ما زالت في السراديب في معظم الاقطار المتحررة . اهذا حق ؟ لا ، قطعا . فالشيوعيون يمثلون مصالح الطبقه العاملة ، والفلاحين ، واسمى مصالح الامة » .

الكتلة الشيوعية والوحدة الافريقية

ما جاء عام ١٩٥٨ ، عندما اعطيت الوحدة الافريقية اولى جذورها السياسية في افريقيا نفسها ، حتى كان الشيوعيون قد وجدوا ما يجعلهم عميقي الريبة فيها . فزعامة الحركة كانت في ايدي الدكتور نكروما و جورج بادمور . ومن انصارها المتحمسين كان زعيد القومية الافريقية الغربية ، الدكتور نامدي ازيكيوي النيجيري . اما بادمور فكان « بعبع » الشيوعيين . واما نكروما، فكان ما زال يومئذ يوصف في الكتابات الشيوعية بالقومي البورجوازي » . وكان الشيوعيون قد هاجموه بانه « عميل الاستعمار » عندما ابعد عام ١٩٥٤ مَن في حزبه من الشيوعيين لاكتشافه انهم « مذنبون لتضامنهم مع WFTU الذي يسيطر عليه الشيوعيون». وكذلك في عام ١٩٥٤ انتقد بوتخين و د. د. ديروغ الـ CPP بانه حزب « يعكس مصالح البورجوازية الوطنية الكبيرة ولا يبرر

ثقة الشعب فيه » . وعلق الحزب الشيوعي البريطاني بقوله عام ١٩٥٥ : « لم يستطع المستعمرون حتى الآن تشكيل نظام نكرومي لوقف الحركة (حركة «الطليعة البروليتارية» في السودان) كما فعلوا في ساحل الذهب » .

وقد استعملت لهجة النقد هذه كلما كتب الشيوعيون او تكلموا عن الدكتور ازيكيوي . وقد وصفوا فلسفته بانها « في الواقع نسخة استعمارية من الفلسفة الامريكية الرجعية المسماة بالبرغماتية» . ووصفوا برنامجه السياسي بانه «ايديولوجية وسياسة للاصلاحية القومية البورجوازية الصغيرة » .

من السهل اذاً ان نفهم الريبة التي ابدوها عندما جاءهم الخبر بان زعماء افريقيا الغربية قد اخذوا زمام المبادرة بالدعوة الى المؤتمر الاول للدول الافريقية المستقلة عام ١٩٥٨ ، وفي وقت لاحق من السنة نفسها المؤتمر الاول لمنظمة الشعوب الافريقية . وقد صمم الروس والصينيون على القيام بما يستبق ذلك ، فاقنعوا الرئيس عبد الناصر ان يستبق الاجراءات في اكرا بايجاد حركة تضامن الشعوب الافريقية الاسيوية في القاهرة في اواخر ١٩٥٧ . وقد كانت هذه الحركة ، بالاضافة الى الـ WFTU ، الهيئة الرئيسية التي حاول الروس والصينيون عن طريقها موازاة نشاطات الوحدويين الافريقيين .

وقد كتب البروفسور ا . بوتخين، بعد مراقبة مؤتمر منظمة الشعوب الافريقية ، قائلا : « ان في حركة الوحدة الافريقية الكثير مما هو غريب على نظرتنا العالمية » . وقد انتقد قرار الـ RDA بعدم الاشتراك في المؤتمر ؛ كما انتقد اشتراكيي افريقيا الاستوائية لغيابهم ، وكانوا قبل ذلك بقليل يدعون الى خلق « الولايات المتحدة لافريقيا الوسطى ؛ كما انتقد رئاسة طوم مبويا للمؤتمر ، قائلا انه ترك « انطباعا سيئا » . غير انه ابدى اشد احتقاره للمناقشة حول اللاعنف ، عندما قاوم زعماء المؤتمر محاولة الزام الوحدة الافريقية بمساندة اساليب العنف . ومع ذلك كله ، فقد رأى ان المؤتمر « ولا ريب حدث تاريخي عظيم » وانه يستحق « مساندة جميع الشعوب الحسنة النية التي تتبنى افكار التقدم والديمقراطية» .

وقد بدأ بوتخين ، الذي قام بترحال واسع في افريقيا بعد عام ١٩٥٧ ، بالدعوة الى تقييم جديد للسياسة الشيوعية تجاه الدول الافريقية المستقلة وحركة الوحدة الافريقية . وقد ساعدت آراؤه بونوماريف وآخرين غيره في تشكيل النظرية الماركسية اللينينية الجديدة بشأن الدول المستقلة بعد الاستعمار في المؤتمر الذي عقده في موسكو ٨١ حزبا شيوعيا في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٠ . وتتمركز هذه السياسة الجديدة في فكرة «الدولة الديمقراطية الوطنية المستقلة» . وبينما يساند الشيوعيون هذه « الدول الديمقراطية الوطنية » ، فان مهمة « القوى التقدمية » (كما يفسرها بونوماريف) هي المساهمة في حكومات هذه الدول لكي « تضمن تطور البلد في طريق التقدم الاجتماعي » .

الوحدة الافريقية بدون بادمور

بعد ان اوجد الشيوعيون موقفا متماسكا تجاه افريقيا ، شرعوا مؤخرا بمراجعة تاريخ الوحدة الافريقية وصبّه في قالبهم . واحدى الحقائق التي تلفت النظر في تاريخهم هي عدم رواد اسم جورج بادمور . واذا ورد صدفة فلكي يقلل من شأنه بمقارنته بالدكتور دوبوا . ويستشهد به جاك وديس بنفس الصدد الذي يستشهد به باولئك الذين يرون « الكفاح الافريقي من اجل الاستقلال لا من وجهة نظر المصالح الافريقية ، بل من وجهة نظر المصالح الغربية في الحرب الباردة » :

« حتى المرحوم جورج بادمور ، وقد كان لسنوات كثيرة في طليعة رواد المشاعر الوحدوية الافريقية ، يبدو انه اتبع نفس النهج الجدلي ، وغالى فيه حتى انه قال اذا كانت سياسة وزارة المستعمرات مبنية على مبدأ تقرير المصير الوطني للافريقيين عن طريق الاصلاح الدستوري المتدرج واتبعتها الحكومة البريطانية ، فـان ذلك سيكون انجع تحصين ضد الشيوعية » .

والذي يتجاهله وديس ان النهج الجدلي نفسه تقريبا سار عليه الدكتور دوبوا (الذي يجعل منه المثل الاكبر للوحدة الافريقية) حتى عام ١٩٤٥ :

« لقد كان للعالم الغربي ولما يزل لديهم اليوم متسع المجال لكي يظهروا للبشرية فوائد رأس المال الخاص ، والربح الخاص ، و « التشبث الفردي » . وكانت نتائج جهودهم النجاح والمصيبة معا . ولكن الامم الرأسمالية ما زال لديها المجال لتنظيم شؤون بيتها ، وللبرهان على انه لا اشتراكية ولا شكلها المتطرف ، الشيوعية ، ضرورية لسعادة البشر وتقدمهم . فاذا تمكنت بريطانيا والولايات المتحدة من فعل ذلك ، فلن يكون بهما حاجة للخشية من روسيا ، او الشيوعية . وكل ما عليهما ان تخشياه هو الفقر ، والبطالة ، والجهل ، والكراهية العرقية ، ومضاعفات هذه الامور ، التي تتألف منها الامبريالية الحديثة » .

وفي كتاب لاحق يهاجم وديس مؤتمر جنوبي افريقيا للوحدة الافريقية لان المؤتمر انتقد المؤتمر الوطني الافريقي لسماحه للشيوعيين بلعب دور في منظمتهم . «غير ان الدكتور دوبوا ، ابا الوحدة الافريقية ، هو نفسه عضو في الحزب الشيوعي — وقد عهد اليه الرئيس نكروما بمهمة تاريخية هي ادارة البحوث لنشر « الموسوعة الافريقية » . وهل هناك مَن يدّعي ان كوامي نكروما لا يخلص الى مُثُل الوحدة الافريقية ؟» وفي مدح دوبوا ، لا يذكر شجب الشيوعيين له في السابق ، وهو « ابو الوحدة الافريقية » ، كواحد من « الدعائم الاجتماعية الرئيسية للرجعية الاستعمارية » (كما جاء في مؤتمر الحزب الشيوعي الامريكي الثامن) ، او « كخائن » ، كما جاء في مؤتمر الكومنترن السادس . ولا اشارة هناك ايضا الى طعن الشيوعيين في نكروما ، او الى ان الحزب الشيوعي ما زال محظورا في غانا .

فجورج بادمور ببساطة ، انما حذف نهائيا في ما كتبه وديس و بوتخين عن نمو حركة الوحدة الافريقية . « ان الوحدة الافريقية » ، يقول وديس ، « نشأت كتعبير لكفاح الشعوب المضطهَدة ضد التمييز العرقي ، وقد كانت لستين سنة من مميزات نضال افريقيا من اجل الاستقلال » .

ولا يجد المرء اية اشارة الى الصراع الطويل بين الكومنترن والشيوعيين من ناحية ، والوحدة الافريقية وزعمائها من ناحية اخرى . ويكاد الدكتور دوبوا يكون الوحيد الذي تم اختياره من مجمع زعماء الوحدة الافريقية باعتباره الرجل « الذي علّم والهم العشرات من قادة افريقيا الحاليين لاجيال» . كما ان المرء لا يجد اي ذكر لغارفي ، او لاثره العميق في الدكتور نكروما ، او ان بادمور ،باتفاق الجميع ، هو ابعد الزعماء اثرا في تكوين آراء زعماء افريقيا المعاصرين . ويفلح وديس على نحو عجيب في مقدرته على بحث مؤتمر مانشستر لعام ١٩٤٥ بدون ان يشير ولو مرة واحدة الى بادمور . وكذلك يفعل بوتخين . والنتيجة هي كمن يعيد كتابة « هاملت » بدون امير الدانمرك . والنظريون الشيوعيون ، كذلك ، لا يذكرون اسم ايميه سيزير ابدا ، مع انه كان لردح طويل من الزمن « الحبيب الاسود » للشيوعيين الفرنسيين ومؤثرا من اقوى المؤثرات في نمو الافكار الناطقة بالفرنسية حول الوحدة الافريقية .

ويقول بوتخين ان « الزنجية » لا يمكن « اعتبارها مصطلحا موفقا »: « فهي لا تنطبق على جميع شعوب افريقيا ، لانها قاصرة على الشعوب التي هي من عرق زنجي ، مع ان هناك شعوبا من عروق اخرى في افريقيا . وقد كانت مؤتمرات الوحدة الافريقية الاولى في جوهرها وحدوية زنجية ، وابو الوحدة الافريقية هو الزنجي الامريكي وليم دوبوا . ولكنه من الواضح ان مكافحة الاستعمار تتطلب وحدة جميع شعوب افريقيا مهما كان عرقها ، لا وحدة الشعوب التي هي من عرق زنجي » .

المواقف الشيوعية من افكار الوحدة الافريقية

يبدو ان هناك خلافا كبيرا في الرأي حول افكار الوحدة والاقليمية . فبوتخين يرى ان «اتحاد الدول الافريقية مهمة تقدمية»، شريطة الا تغيب عن البال نصيحة خروتشيف من انه « مسألة معقدة، ويجب الا يجري القيام به بتسرع او ضد ارادة الشعوب المعنية». اما د . ترتشانينوف ، من ناحية اخرى ، فيعتبر « تكوين ولايات متحدة افريقية ، وتأليف سوق مشتركة افريقية ، والتخطيط الاقتصادي المباشر ... امورا غير واقعية في الآونة الراهنة». ولكن وديس يخالفه في ذلك، ويرى ان الوحدة الافريقية «في اساسها اتجاه تقدمي » . وحتى لو « لم يكن تحقيق الاتحاد السياسي امكانية آنية ، فان طرح

فكرة، فكرة ولايات متحدة افريقية ، يصبح شعارا سياسيا يساعد في تحشيد الشعب وتقوية رغبته في الوحدة بتزويده بمنظور يثير فيه الهمم . ان الهدف المتمثل في تحقيق اتحاد سياسي لدول افريقيا المستقلة هدف نبيل وتقدمي ؛ ولكن من المهم ان يكون ثمة فهم للقاعدة التي يمكن بناء اتحاد كهذا عليها . فالوحدة بين دول تعادي الاستعمار ودول تسانده امر غير ممكن كغاية بعيدة المدى » .

لقد رحب ف . كودريافتسيف ، مراسل « ازفستيا » الخاص في مؤتمر القمة المنعقد في اديس ابابا في ايار (مايو) ١٩٦٣ ، بالقرارات لانها تثبت ان « هذه الوحدة مبنية على اساس يعادي الامبريالية والاستعمار » . غير انه استرسل ليعبر عن شكوكه في اتجاهات الوحدة الافريقية الحالية مدعيا انها قوة تتوخى عزل القارة الافريقية عن المؤثرات « التقدمية » التي في القارات الاخرى .

وتنعكس هذه الشكوك ايضا في آراء الشيوعيين حول قبول الوحدويين الافريقيين بفكرة « الكتلتين » ، دون ان يكون هناك شيء للخيار بينهما . فالمرء يلاحظ حوارا متزايدا بين النظريين الشيوعيين والوحدويين الافريقيين حول طبيعة « الكتلتين » ؛ وهذا يؤدي دائما الى مناقشة المبدأ الاساسي في عدم الانحياز . ولئن يحترموا رغبة الوحدويين الافريقيين في البقاء غير منحازين (يسمي وديس ذلك « بالهدف العادل ») ، فانهم يستطردون فيتساءلون ان كان في مقدور افريقيا ، في الواقع ، تجنب اتخاذ قرار :

« لا تستطيع افريقيا ان تبتّ فيما اذا كانت ستنحو منحى اشتراكيا او رأسماليا ، اعتمادا على رغبات البعض وحسب — كما انه ليس في الامكان ان تجد افريقيا « منحى ثالثا » (اشارة الى نظرية بادمور) ، ما هو بالاشتراكي ولا بالرأسمالي ، بل هو نوع اقتصادي جديد من المجتمع ، لم يكتشفه ولم يتصوره حتى الآن احد ... ومن السخف ان نتوقع للنظرية القائلة «بالكتلتين» ، او الفكرة القائلة بان الاقطار الافريقية في سيرها نحو الاشتراكية يجب ان تبقى في الوسط تماما بين الاشتراكية والرأسمالية ، اي اثر باق في افريقيا» .

وبعبارة اخرى ، يرى الشيوعيون في عدم الانحياز فترة عابرة : وحالما تصبح الدول الافريقية اشتراكية ، فانها ستنشد الارتباط « بالعالم الاشتراكي » .

بل ان كودريافتسيف ابلغ صراحة من وديس . فهو لا يتحدث عن عدم الانحياز بل عن « الانعزال » : « ان الوحدويين الافريقيين الذين يدعون الى الانعزال يسعون في الواقع الى عزل القارة الافريقية عن المؤثرات التقدمية . فهم يريدون ان يقيموا سياجا حول افريقيا يعزلها عن البلدان الاشتراكية ، والطبقة العاملة الدولية والحركات الشيوعية ، وكذلك عن تيارات عصرنا الاجتماعية والسياسية . انهم عن قصد يمجّدون « الاصالة » الافريقية ، اي التأخر الافريقي بما فيه من انقسامات قبلية ، وزراعة بدائية ، وانعدام

صناعة ، وامية ، وامراض ، وعادات بالية . هنا يجد الوحدويون الافريقيون «الاقحاح» ارضا مشتركة مع المستعمِرين الذين هم ايضا يحثون على الحفاظ على « الاصالة » الافريقية ، ذارفين دموع التماسيح على العادات غير المتمدنة والشعائر الغريبة الآخذة الآن بالانقراض».

ولما كان كودريافتسيف لا يعيّن مَن المقصود عند شجبه « الاصالة » الافريقية — وهي فكرة ترد على السنة قادة الوحدة الافريقية كلهم — من الصعب معرفة مَن هم الذين يصوب سهامه نحوهم. قد تنطبق انتقاداته على شيوخ الماساي التقليديين او غيرهم من القبائل الرحّل. غير انها من الصعب ان تنطبق على اي من الوفود التي اشتركت في مؤتمر اديس ابابا .

وبينما نرى النظريين الشيوعيين لا يمسّون الا الحافي من قضية النفاذ في عدم الانحياز ، فاننا نرى احيانا بعضهم مستعدا للهجوم مباشرة على هذا المبدأ الاساسي في حركة الوحدة الافريقية . منهم مثـلا ادريس كوكس ، وهو من خبراء الحزب الشيوعي البريطـاني في الشؤون الافريقية . قال في مؤتمر عقدته لجنة المنظمات الافريقية في بريطانيا :

« يستحيل على افريقيا البقاء منعزلة. ولن تقوى على مقاومة انتشار الافكار الشيوعية. والسبيل الى انهاء الحرب الباردة هو ان تنضم افريقيا الى القوى الشيوعية والتقدمية في العالم ، وان تشدد الكفاح للقضاء على الاستعمار ، وان تزحف نحو الاشتراكية . فميزان القوى في العالم اليوم هو في صالح الاشتراكية والتحرر الوطني . وافريقيا عامل هام في هذه الحالة المتغيرة. وسيرها نحو الحرية والوحدة سيعجّل في الغاء نظام الامبريالية العالمي والقضاء على اسباب الحرب الجذرية ... هذه هي وجهة نظر الشيوعيين البريطانيين بشأن المكانة الهامة التي تحتلها الآن افريقيا في عالم اليوم ، وفي بناء عالم الغد المسالم المترفـّه » .

من الممتع ان نقارن عبارة ادريس كوكس هذه بالبيان المشترك بين الاتحاد السوفييتي وجمهورية مالي عند زيارة الرئيس موديبو كيتا الى موسكو بعد ذلك باقل من شهر :

« لقد رأى الجانبان ان الحياد ، الذي يتبعه عدد من اقطار افريقيا وآسيا ، طريق يلتقي بالوضع الحقيقي في هذه الاقطار . وقد عبرا عن ثقتهما من ان البلدان غير المنحازة في افريقيا وآسيا تقدم خدمات مفيدة لكفاح الامم المشترك ضد الاستعمار وكل انواع الاضطهاد الاستعماري ، مقويةً بذلك معسكر السلام . ورأى الجانبان كذلك ان سياسة الحياد في هذه البلدان ، التي هي تعبير عن ارادة شعوبها لتقوية استقلالها ومقاومة اية زعامة قطرية خارجية ، تنسجم وحق الامم في تقرير سبيل نموها » .

والجدير بنا ان نقارن اعتراف ادريس كوكس الصريح بالنيابة عن الحزب الشيوعي البريطاني بمقالة ظهرت في « برافدا » بتوقيع « مراقب » ، في ٢٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٢ . فقد اعادت نشرها « الاخبار السوفييتية » (الصادرة عن السفارة السوفييتية في لندن بعددها المؤرخ ١٩٦٢/١٢/٢٨) كتعليق منها على التهجمات التي كانت العناصر

« الرجعية » قد سددتها في الغرب على السياسات الحيادية المتبعة في معظم الدول المستقلة الحديثة في آسيا وافريقيا :

« يقول مقال « برافدا » ان هذه ليست بالمرة الاولى التي تهاجم فيها الامبريالية سياسة عدم الانحياز لاي كتلة ، ولكن لعلها اشد الحملات تركيزا على الحياد . ويستمر المقال ليصرح ان الرجعية العالمية ، بعد ان بحثت طويلا عن ذريعة لاطلاق حملتها على الدول الوطنية الفتية ، استغلت لنفسها النزاع على الحدود الصينية الهندية . وصوت الاوساط الرجعية في بعض الاقطار الاسيوية ، بما فيها الهند ، بات مسموعا ايضا في جوقة اعداء سياسة عدم الانحياز . لماذا تهاجم الامبريالية وقوى الرجعية الداخلية سياسة الحياد بهذا العنف ؟ لقد منحت سياسة عدم الانحياز معظم الدول المستقلة حديثا الفرصة لاتباع نهج مستقل . وقد استطاعت البلدان الحيادية ان تقاوم بالفعل محاولات الدول الاستعمارية السيطرة عليها » .

وثمة قضيتان اخريان تنتج عنهما المصاعب للشيوعيين في محاولاتهم الحذرة لوضع انفسهم في صف الوحدة الافريقية ، هما : الكفاح الطبقي والماركسية الافريقية . فبوتخين يصرّ ، معارضا رأي معظم الوحدويين الافريقيين والعديد من الماركسيين الافريقيين ، على انه «من المستحيل ان يسمى المجتمع الافريقي المعاصر مجتمعا لا طبقيا » . وهذا وديس يزعم « ان الذين يؤكدون ان لا طبقات هناك ، يجادلون كأن القول بوجود طبقات مختلفة في افريقيا انما هو محاولة لفرض افكار اوربية ونمط اجتماعي اوربي على افريقيا . غير ان وجود الطبقات ليس اختراعا اوربيا بل ظاهرة عالمية . . . ان الاعتراف بالحقائق الطبقية في افريقيا الحديثة مهم ايضا اذا كانت سترى اي تقدم نحو الاشتراكية » .

فاذا ما جئنا الى مضمار الماركسية الافريقية ، رأينا النظريين الشيوعيين يدافعون بحرارة عن الماركسية العقائدية ويفسرونها (« ليس هناك الا نوع واحد من الاشتراكية العلمية ») ، بينما يحاولون بصبر واناة ان يظهروا « للماركسيين الافريقيين » الاخطاء التي اوصلتهم اليها « استثنائيتهم » الوحدوية الافريقية . وهذا حقل هام للدراسة ، غير ان بحثه كاملا يحتاج الى مقال طويل آخر . حسبنا هنا ان نشير الى ان بوتخين الذي لا يعرف الكلل ، اصبح ، لتكيّفه الخاص بخبرته المباشرة لافريقيا ، على خلاف مع النظريين الماركسيين الآخرين حول فكرته القائلة بان افريقيا ، في الواقع ، قد تسير في « طريق النمو اللارأسمالي » — وهي فكرة كان في الاصل قد جاء بها في كتابه « افريقيا تتطلع الى الامام » .